

كذلك فإن المحصلة النهائية لهذا تفيد أن شبه جزيرة القرم عادت إلى روسيا بأيدي الآخرين: وزارة الخارجية الأمريكية والمتطرفون الأوكرانيون.

أليس هذا هو فن السياسة بعينه؟

المثال الآخر للحرب بالوكالة يأتي به الكاتب من أحداث ثورة المجر وأزمة قناة السويس عام ١٩٥٦؛ الحدثان اللذان كانا يتطوران جنباً إلى جنب ويوما بيوم. برأي المؤلف فإن انتفاضة بودابست التي انطلقت عام ١٩٥٦ ضد القوات السوفيتية لم تكن أكثر من ستار غربي لأجل الاستيلاء على قناة السويس. يقول الباحث: «كانت الحاجة تدعو لإثارة التمرد في بودابست ووضع الاتحاد السوفيتي في حالة حرب حتى لا يكون بمقدوره الرد على الغزو الغربي لمصر» (ص ١٣١).

يقترّب المؤلف من معظم الأحداث التاريخية الغامضة للقرن العشرين، وهي أحداث لا يمكن إخضاعها لشرح منطقي إلا بقبول نظرية الأيدي الخارجية في السياسة العالمية. ومن أهم الأحداث التاريخية للقرن الماضي هجوم هتلر شبه الانتحاري على الاتحاد السوفيتي، وهو الهجوم الذي رسم بداية نهايته وردم كل نجاحاته السابقة. ولناقشة هذا الفصل التاريخي، خصص الكاتب فصلاً عدة من كتابه، ورسم صورة واسعة للأحداث العالمية قبل الهجوم الألماني على الاتحاد السوفياتي. وفي الخلاصة وجد أن السبب الرئيس الذي دفع هتلر لفتح الجبهة الشرقية ضد الاتحاد السوفيتي هو انفلات الوضع وخروج ألمانيا من سيطرة الغرب. كان هتلر يتأهب لغزو الشرق الأوسط لسد حاجته من النفط والموارد الأخرى، بيد أن عملية من تلك النوع، أي وصول القوات الألمانية إلى العراق وإيران والهند كان يعني انقطاع النفط ومشتقاته عن بريطانيا، وهذا ما لم يكن الغرب، ممثلاً في بريطانيا العظمى، مستعداً لمواجهة. وقد استخدمت شتى الطرق لتجنب ذلك السيناريو وتم الضغط على هتلر بالعدول عن فكرة إرسال قواته للشرق الأوسط وإغرائه بالجمهوريات السوفيتية الأقرب جغرافياً والغنية بالنفط.

ومرة أخرى يعود ستاريكوف إلى عقد مقارناته بين الأحداث التاريخية وما يجري اليوم على الساحة الدولية فيربط بين انبعاث النازية في ألمانيا والأحداث الأوكرانية الأخيرة. يقول: «هل من عاقل يصدق أن بلدان الديمقراطية الغربية كانت غافلة عن غرابة الحملة الألمانية الانتخابية التي اعتقل

وحسب، وإنما أيضاً تنال في أي منطق سليم، فيعود إلى الضغوط التي تستخدمها الولايات المتحدة على أوروبا التي تريدها خادماً طبعاً لا حليفاً قوياً. إذن فالضغط الداخلي الذي تواجهه أوروبا أمر مصطنع يدفعها لتكون أكثر اعتماداً على الولايات المتحدة، وأية محاولة للعب الانفرادي منها وإبراز الشخصية الاستقلالية فيواجه فوراً بالهجمات الإرهابية في عواصمها» (ص ١٩٣).

يشير المؤلف - من بين ما يثيره من قضايا داخلية ارتبطت بفترة الاتحاد السوفيتي وروسيا الجديدة - مسألة تتعلق بقصور النظر من قبل بعض الرؤساء فيما يتعلق بنقد الذات والاعتراف بالخطيئة. فبرأيه أن أسوأ ما يمكن أن يرتكبه رئيس دولة ما هو الاعتراف بأخطاءه سابقه وطلب الصفح عما وقع، وهو الأمر الذي حدث أكثر من مرة في تاريخ الاتحاد السوفيتي وروسيا الجديدة. يقول المؤلف: «الاعتراف بالخطأ وطلب الصفح عنه أمر جيد بالنسبة للأفراد من العامة، أما بالنسبة للدولة فالاعتراف بالخطأ يعد ضربة كبيرة لوضعها ومثلية يستفيد منها منافسوها. ولهذا السبب لا يجاهر القادة الغربيون بخطايا بلدانهم (...) سوف لن تعتذر الولايات المتحدة عن إسقاط القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكي في اليابان كما لن يطلب اليابانيون الصفح عن عملية بيرل هاربر (...) أما اتهامات خروتشوف لستالين فقد أشعلت فتيل الاضطرابات المجرية عام ١٩٥٦ والتي تلتها عواقب لا عودة منها. لقد أسس هجوم خروتشوف لسلفه المنطق التالي: ستالين الذي كان رئيساً للاتحاد السوفيتي مجرم، إذن فكل الذين أدينوا من قبله، ضحايا أبرياء، وإذن فالدولة التي يرأسها مجرم لا يمكن أن تكون هي الدولة التي خلصت العالم من النازية. فليسقط المجرمون (ومن معهم) إذن!» (ص ١٤٦-١٤٧). وبهذا أعطى الرئيس السوفيتي مبرراً لأعداء بلاده للنيل من عساكره في المجر، فني السياسة لا وجود لمذبح تُهْرَق فيه الخطايا ويقدم صكوك الغفران.

الكتاب: حرب بالوكالة.

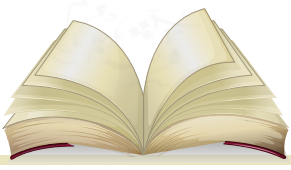
المؤلف: نيكولاي ستاريكوف.

الناشر: إكسيمو/ موسكو ٢٠١٧.

اللغة: الروسية.

عدد الصفحات: ٣٥٢ صفحة.





# حرب بالوكالة.. لنيكولاي ستاريكوف

## فيكتوريا زاريتوفسكايا \*

«المعتدي دائماً مُحب للسلام» بهذه المقولة التي تعود إلى كارل فون كلاوزفيتز (١٧٨٠ - ١٨٣١)، وهو قائد عسكري ومنظر ومؤرخ حربي روسي، التحق بالخدمة في الجيش الروسي بعد هزيمة بروسيا من قبل نابليون، ويُعتبر كتابه «عن الحرب» من كلاسيكيات الفكر العسكري) بهذه المقولة المحيرة ظاهرياً، يبدأ الصحفي والسياسي الروسي المعروف نيكولاي ستاريكوف كتابه الجديد «حرب بالوكالة». أما الفحوى التي تضمنتها المقولة فهي أن الحرب لا تقوم لذاتها، فغرضها الاستيلاء على كل ما يُمكن الاستيلاء عليه، ومن مصلحة المعتدي الحصول على ما يُريده بأقصر الطرق وبلا احتراب مع أحد، كما يفضل الدخول إلى البلاد الأخرى من غير مقاومة أو إراقة دماء. في هذا السياق الفكري الذي تتعدد مشاريعه وتمتد أفرعه إلى السياسة والاقتصاد والثقافة، يتفرغ ستاريكوف لبحثه الجديد.

حدث في أوكرانيا من اتخاذ إجراءات لمحاربة اللغة الروسية). لم يُطع برئيس البلاد الشرعي (كما جرى في أوكرانيا) لجر البلاد إلى حرب أهلية. ما حدث هو قيام مستوطنو المستعمرات بإطاحة سلطة جورج الثالث وقضي الأمر بذلك» (ص ١٦-١٧).

وفي تحليله لمسار التاريخ العالمي يشير الباحث مراراً وتكراراً إلى تواريخ أحداث كبرى وقعت في مختلف القارات وتبدو من الوهلة الأولى مستقلة عن بعضها البعض، غير أن الكاتب يجمعها في حزمة متشابكة من المكائد السياسية. يقول في هذا الصدد: «إن تدبير المآزق للعدو وإحاطته بالمشاكل عن طريق أيدٍ أخرى لهي وسيلة من أكثر الوسائل رواجاً في السياسة العالمية. إن القائد الذكي يلجأ إلى استنزاف طاقة العدو ويجد مصالحةً في حياكة المؤامرات في البلدان المجاورة لعدوه. أفضل مثال (تاريخي) على ذلك سياسة الإمبراطورة الروسية إكاتيرين الثانية. ولنسأل أنفسنا، متى انتهت حرب استقلال الولايات المتحدة؟ في عام ١٧٨٣. ومتى ضمت إكاتيرين شبه جزيرة القرم إلى روسيا؟ في عام ١٧٨٣. هل حدث ذلك صدفة؟ قطعاً لا. ففي تلك اللحظة، عندما كانت الدول العظمى تتصارع فيما بينها ولم تستطع مساعدة الأتراك ضد روسيا، قررت الإمبراطورة ضم القرم إلى بلادها» (ص ١٩). الأمر شبيه لما جرى عام ٢٠١٤ حين لم تتوان روسيا في اهتبال الفرصة التاريخية لاستعادة ما فقدته من قبل، أي شبه جزيرة القرم. وبرأي المؤلف أن أمراً مثل هذا لم يكن ليحدث لو أن الرئيس الشرعي يانوكوفيتش ظل على رأس حكومة كييف، وبأن الاستفتاء بانفصال القرم لم يكن ليتم ولا كان لروسيا أن تجد مدخلا واحداً لإلحاق شبه جزيرة القرم إلى خارطتها لولا انقلاب كييف. والحال

الخارجية»، «كيف ناضل المجريون من أجل قناة السويس وهم يجهلون ذلك»، «كيف أصبحت بولندا حليفاً لهتلر وما ترتب عن ذلك»، «كيف عمل الاتحاد السوفياتي بالوكالة»، «فهم ستالين وكيف ساعد لندن في قتالها ضد هتلر». ومن غير اكتراث بالتسلسل الزمني للأحداث، شكل المؤلف حلقات وصل بين أحداث تاريخية معروفة وأخرى تجري في حاضر أيامنا، لا سيما في أوكرانيا وبعض مناطق الصراع في الشرق الأوسط كليبيا وسوريا.

حظيت أزمة أوكرانيا التي اندلعت عام ٢٠١٤ بالاهتمام الأكبر من المؤلف. ومن بين المقاربات التي استخدمها لوصف الأحداث هناك، مقارنته بين الأزمة الأوكرانية وظروف تشكل الولايات المتحدة وانفصالها عن التاج البريطاني. يقول في ذلك: «من وجهة نظر القانون الدولي فإن ممارسات سكان مدينة دونباس الأوكرانية عام ٢٠١٤ أكثر شرعية من ثورة أتباع الملك جورج الثالث. لماذا؟ لأن الانقلاب الذي حدث في العاصمة كييف في فبراير من عام ٢٠١٤ ما هو إلا انتهاك صارخ لدستور البلاد، كما أن تعيين الحكومة الجديدة تجاوز سافر لقانونها الأساسي واغتصاب علني للسلطة. لم تكن ثمة شرعية لحكومة كييف الجديدة وعدم الخضوع لها كان حقاً لسكان دونباس. أما ما يتعلق بثورة سكان المستعمرات البريطانية قبل قرون ضد الملك الشرعي فهي باطلة إذ لم يشك أحد في شرعية اعتلاء الملك العرش البريطاني. في مدينتي دونيتسك ولوهانسك الأوكرانيتين انتفض الناس ضد المقتصبين وفي أمريكا ضد السلطة الشرعية. الانتفاضة في أمريكا تعود إلى أسباب اقتصادية بحتة، ولم يقم أحد بمنع الناس من التحدث والكتابة باللغة الإنجليزية (كما

لا يناقش هذا الكتاب مُفردات الحرب كالقتال وتنفيذ الهجمات وتكبد الخسائر بشكلها التقليدي، فحينما يدور النقاش عن صراع القوى الكبرى، فإن وتر التنافس بمفهومه الكلي هو الذي يكون مشدوداً ومسيطرًا. بل كلما زاد وطيس المواجهة التنافسية في هذا النوع من الصراعات كلما قلّت فرص المواجهة المباشرة بين أطرافه وازدادت ندرة. فإذا ما طُفح الكيل بين المتنافسين ورشحت الرغبة في التصادم ونشب المخالب، يوكل ذلك إلى أيدٍ وسيطة تقوم بدور الوكيل الحربي. يقول ستاريكوف: «الحرب مطلقة. ولم يعرف التاريخ لحظة توقفت فيها الحرب. والفكرة الحمقاء القائلة بنهاية التاريخ والتي أطلقها موظف وزارة الخارجية الأمريكية فرانسيس فوكوياما، لم تتحقق ولن تتحقق أبداً، أما الأعمال العسكرية فهي جزء ضئيل مرئي من جبل الجليد. وحينما لا تطلق المدفعية مقذوفاتها، تأتينا القذائف من الإرهابيين، وعندما يركن الجنرالات إلى الصمت يتحدث الاقتصاديون ورجال الأمن ويتناقشون من أجل الحصول على أدوات لخلق الأيدي التي تحقق أهداف ساسة بلدانهم» (ص ١١-١٠). ويعد هذا الإجراء الذي يتحكم بالهيئات والمنظمات الدولية ويدفعها إلى العمل لمصلحة دولة بعينها، فيما تظن (أي المنظمات الدولية) أنها تؤدي وظيفتها وتعمل وفق القواعد والشروط التي تأسست عليها، يعد ذلك من أرفع فنون السياسة الدولية.

يحلل المؤلف أحداث التاريخ العالمي التي تم فيها تطبيق آلية الاستعانة بوكلاء خارجيين، وأفرده لذلك فصلاً من كتابه جاءت تحت عناوين موحية وهي من قبيل: «عن جمهورية تكساس والانفصاليين البلجيكين»، «أدولف هتلر بصفته أداة للسياسات

